

الرَّسَالَةُ الثَّلَاثَةُ : لُغَةُ الشَّيْطَانِ مَعَ الصَّالِحِينَ

في هذه الرَّسَالَةِ تَتَقَلَّ دَعْوَةُ الشَّيْطَانِ مِنْ عَامِلِيَةِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى عَالَمِ خَاصِّ بَعَادَةِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ ، وَمِنْ مَسَلِكِ الْهَجُومِ عَلَى بَنِي آدَمَ جَمِيعًا - شَقِيهِمْ وَسَعِيدِهِمْ - إِلَى الْحِصُونِ الْمُنِيعةِ الَّتِي احْتَمَتْ بِقِلَاعِ الْإِيمَانِ ، وَتَمَسَّكَتْ بِهَدْيِ الرَّحْمَنِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تَحَطَّمَتْ أَمَالُهُ ، وَفَشَلَتْ كُلُّ مَحَاوَلَاتِهِ فِي عَالَمِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ .

فَعِبَادَةُ اللَّهِ الصَّالِحُونَ هُمْ زِينَةُ هَذِهِ الْأَرْضِ وَحَسَنُ بَهَائِهَا وَنُورُ جَمَالِهَا ، وَلَوْلَا هَؤُلَاءِ لَخَسَفَ اللَّهُ الْأَرْضَ بِمَنْ عَلَيْهَا ، حَيْثُ يَنْتَقِلُ هَؤُلَاءُ مِنْ رَوْضَةِ طَاعَةِ إِلَى أُخْرَى ، وَمِنْ عَالَمِ الْمَثَلِ الْعُلْيَا إِلَى عَالَمِ الْحَقِّ وَالْفَضِيلَةِ ، وَكَأَنَّهَا كَوَاكِبُ دَرِيَّةٍ تَضِيءُ لِلْبَشَرِيَّةِ طَرِيقَ الْهُدَايَةِ ، تَسْعُدُ بِهِمُ الْحَيَاةَ وَيَسْعُدُونَ بِهَا ، فَخِلَافَةُ الْأَرْضِ وَعِمَارَتُهَا لَا تَنْهَضُ إِلَّا بِهِمْ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْرَحُونَ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ ، وَلَكِنْ هَلْ يَدْعُ الشَّيْطَانُ لِهَذَا الْبِنْيَانِ الْعَظِيمِ أَنْ يَسْتَقَرَّ أَصْلُهُ فِي الْأَرْضِ وَفِرْعَهُ فِي السَّمَاءِ؟! .

سؤالٌ يَجِبُ عَنْهُ وَاقِعُ الْحَيَاةِ ، وَالَّذِي يَشْهَدُ بَعْدَاوَةَ الشَّيْطَانِ لِبَنِي آدَمَ وَخَاصَّةً الصَّالِحِينَ مِنْهُمْ ، حَيْثُ يَنْطَلِقُ الصَّالِحُونَ فِي أَرْضِ اللَّهِ بِمَا وَهَبَهُمُ اللَّهُ مِنْ قُلُوبٍ جَلِيَّةٍ ، وَعُقُولٍ زَكِيَّةٍ ، وَفِطْرَةٍ سَوِيَّةٍ ، وَمِنْهُمْ طَرُقُ الْهُدَايَةِ ، وَسُبُلُ الرُّشْدِ وَالرَّعَايَةِ ، يَعْبُدُونَهُ لَا يَشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا ، وَيَعْمُرُونَ حَيَاتِهِمْ بِالْتَقْوَى وَالذِّكْرَ وَالْإِخْلَاصَ ، فَيَبْدَأُ الشَّيْطَانُ فِي تَثْبِيطِ عَزَائِمِهِمْ ، وَغَلَقِ أَبْوَابِ الرَّحْمَةِ فِي وُجُوهِهِمْ ، فَيُظَلُّ الصَّرَاعُ قَائِمًا بَيْنَهُمْ إِلَى أَنْ تَطْوِي الْحَيَاةُ صَفْحَتَهَا الْأَخِيرَةَ بِرَحِيلِ الْجَمِيعِ عَنْ عَالِمِهَا وَالْإِسْتِقْرَارِ فِي عَالَمِ الْبَقَاءِ وَالْخُلُودِ .

وَقَدْ حَدَّثَنَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَنْ بَعْضِ السُّبُلِ الَّتِي سَلَكَهَا الشَّيْطَانُ مَعَ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ ، ظَهَرَ عُنْوَانُهَا ، وَتَبَيَّنَتْ مَلَاحِجُهَا ، وَتَجَسَّدَتْ آثَارُهَا فِي الصُّورِ الْآتِيَةِ :

الصُّورَةُ الْأُولَى : سَبِيلُ الْخُطُواتِ

وَجَّهَ الشَّيْطَانُ خُطُواتَهُ لِكَافَّةِ بَنِي الْبَشَرِ فِي الرَّسَالَةِ الْأُولَى ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا هُنَا بِخُطُواتِهِ الَّتِي بَثَّهَا لِعِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ مِنْهُمْ ، وَذَلِكَ مَحَاوَلَةً مِنْهُ لِلدُّخُولِ إِلَى عَالَمِهِمْ وَالْإِقْتِرَابِ مِنْهُمْ ، وَإِيْهِمُ خِلَافَ الْحَقِّ حَتَّى يَحْقُقَ مَقْصِدَهُ ، وَيُظْفِرُ بِبَغِيئَتِهِ ، وَلَكِنْ أَتَى لَهُ أَنْ يَحْقُقَ الْأَمَانِيَّ فِي عَالَمِ قَدْحَتِهِ الْمَلَأَتْكَ ، وَحَفَظَهُ اللَّهُ بِحَفَظٍ مِنْ عِنْدِهِ؟! .

وقد حدَّثنا القرآن الكريم عن هذا السَّبيل في ثلاث آيات :

الآية الأولى : قال الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (1).

فهذه الآية فيها توجيه صريح من ربِّ العباد - ﷻ - إلى المؤمنين من عباده بعدم اتباع خُطُوات الشَّيْطان بكل آثاره وطرقه كليَّة دون تفصيل لها ، وذلك بقوله أولاً ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ، وثانياً : ﴿ لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ ﴾ .

وقيل إن السَّبب في نزول هذه الآية : " أن عبد الله بن سلام ، وسلام بن قيس ، وأسد وأسيد ابنا كعب ، ويامين بن يامين ، وهم مؤمنو أهل التَّوراة ، استأذنوا النبي - ﷺ - في قراءة التَّوراة في الصَّلَاة ، وفي أمر السَّبب ، وأن يعملوا ببعض ما في التَّوراة ، فقال الله - ﷻ - : خذوا سنَّة محمد - ﷺ - وشرائعه ، فإن قرآن محمد ينسخ كل كتاب كان قبله ، فقال : ﴿ أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ ، يعني في شرائع الإسلام كلها ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ ﴾ ، يعني تزيين الشَّيْطان ، فإن السنَّة الأولى بعدما بعث محمد - ﷺ - ضلالة من خُطُوات الشَّيْطان ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ يعني بَيِّن (2) .

فالشَّيْطان يبدع في تزيين السُّوء وتجميل المنكر في هذا السَّبيل ، فيبتدع أشياء ما أنزل الله بها من سلطان حتى يصرف الصَّالحين من عباد الله عن منهج الحقِّ وطريق الهدى والرَّشاد ، فكل ما هو خلاف شرع الله ومنهجه فهو من خُطُوات الشَّيْطان وآثاره ، لذلك يأتي التوجيه صراحة من ربِّ العباد - ﷻ - : " اعملوا أيها المؤمنون بشرائع الإسلام كلها ، وادخلوا في التَّصديق به قولاً وعملاً ودعواً وطريق الشَّيْطان وآثاره أن تتبعوها فإنَّه لكم عدو مبين لكم عداوته ، وطريق الشَّيْطان الذي نهاهم أن يتبعوه هو مخالف حكم الإسلام وشرائعه ، ومنه تسييت السَّبب وسائر سنن أهل الملل التي تخالف ملَّة الإسلام (3) " .

ومن هنا فالدَّلالة : " لا تقتفوا آثاره ؛ لأنَّ ترككم شيئاً من شرائع الإسلام اتباع للشَّيْطان (4) " .

(1) البقرة الآية 208 .

(2) تفسير مقاتل بن سليمان 109/1 .

(3) جامع البيان 258/4 .

(4) معاني القرآن وإعرابه 280/1 .

وأما الآية الثانية يقول الله تعالى فيها: ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (1).

فهذه الآية قد حَدَدَتْ وَخَصَّصَتْ خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ حتى يحذر المؤمنون من عباد الله ما يلبسه الشيطان على أوليائه من تحريم ما أحلَّ الله لهم ، فذكرت الآية أن " ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً ﴾ يعني الإبل والبقر، ﴿ وَفَرْشًا ﴾ والفرش: الغنم الصغار مما لا يحمل عليها ، ﴿ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ من الأنعام والحرث ﴿ حَلَلًا طَيِّبًا ﴾ ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ : يعني تزيين الشيطان فتحرمونه (2) .

فمداخل الشيطان متعددة وآثاره مختلفة ومتنوعة فاحذروا هذا الجانب الذي تسلَّل به إلى قلوبكم ، والذي من خلاله حَرَّمَ ما أحلَّ الله لكم، فهذا بيان صريح من ربكم يقول فيه : ﴿ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أيها المؤمنون ، فأحلَّ لكم ثمرات حروثكم وغروثكم ، ولحوم أنعامكم ، إذ حَرَّمَ بعد ذلك على أنفسهم المشركون بالله ، فجعلوا لله ما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً وللشيطان مثله ، فقالوا ﴿ هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ﴾ ، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ ، كما اتَّبَعَهَا باحِرُوا البحيرة ، ومسيبوا السائبة ، فتحرموا على أنفسكم من طيب رزق الله الذي رزقكم ما حَرَّموه ، فتطيعوا بذلك الشيطان ، وتعصوا به الرحمن ، كما ... قال ابن زيد في قوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ ، لا تتبعوا طاعته ، هي ذنوب لكم ، وهي طاعة للخبيث إن الشيطان لكم عدو ، ينبغي هلاككم وصدكم عن سبيل ربكم (ميين) قد أبان لكم عداوته بمناسبة أباكم بالعداوة ، حتى أخرجه من الجنة بكيده ، وخذعه حسداً منه له وبغياً عليه ... ثم قال لهم : كُلوْا مما رزقكم الله من هذه الثمار واللحوم ، واركبوا هذه الحمولة ، أيها المؤمنون ، فلا تتبعوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ في تحريم ما حَرَّمَ هؤلاء الجهلة بغير أمري إياهم بذلك ، قل ، يا محمد ، هؤلاء الذين حَرَّموا ما حَرَّموا من الحرث والأنعام اتباعاً للشيطان ، من عبدة الأوثان والأصنام الذين زعموا أن الله حَرَّمَ عليهم ما هم مُحَرَّمون من ذلك ، المذكورين حَرَّمَ ربكم ، أيها الكذبة على الله ، من الضأن

(1) الأنعام الآية 142 .

(2) تفسير مقاتل بن سليمان 1/474 .

والمعز؟ فإيَّهم إن ادَّعوا ذلك وأقروا به ، كذبوا على أنفسهم وأبانوا جهلهم... لأنَّهم كانوا يقرُّون بإقرارهم بذلك أنَّ الله حرَّم عليهم ذكور الضَّأن والمعز وإناثها، أن يأكلوا لحومها أو يركبوا ظهورها ، وقد كانوا يستمتعون ببعض ذكورها وإناثها(1) .

فتحريم ما أحلَّ الله مدخل من مداخل الشُّرك ، لذلك أتى " النهي عن شؤون الشُّرك ، فإنَّ أول خُطوات الشَّيطان في هذا الغرض هي تسويله لهم تحريم بعض ما رزقهم الله على أنفسهم(2) " .

وأما الآية الثالثة فيقول فيها ربُّنا - ﷻ -: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ (3) .
فالصَّالحون من عباد الله - ﷻ - قد أغلقوا جميع منافذ الشَّيطان وأبوابه ، ولكنه لا ييأس من إعلان الحرب عليهم ، وصدَّهم عن هدى ربِّهم ، حتى يفتح لهم في هذا الجانب بابًا آخر من أبوابه ، وسبيلا آخر من سُبله ، فيدق جرس الخطر تنبيهًا لهم ، وذلك بتوجيه ربِّهم : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ ﴾ : يعني تزيين الشَّيطان في قذف عائشة - رضي الله عنها - ، ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ يعني بالمعاصي ﴿ وَالْمُنْكَرِ ﴾ يعني : ما لا يعرف(4) ... " .

فهذا " تمثيل مبني على تشبيه حالة محسوسة بحالة مفعولة إذ لا يعرف السامعون للشيطان خُطوات حتى ينهوا عن اتِّباعها ، وفيه تشبيه وسوسة الشَّيطان في نفوس الذين جاءوا بالإفك بالمشي(5) " .

فالشَّيطان في هذا الباب قد تعدَّى حدوده ، وأسرف في مكره وخداعه ، حيث زَيَّن لبعض الصَّالحين من عباد الله الطَّعن في أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - ورميها

(1) جامع البيان 182/12 : 185 .

(2) التحرير والتنوير 127/8 .

(3) النور من الآية 21 .

(4) تفسير مقاتل بن سليمان 413/2 . وينظر: تفسير مجاهد . تحقيق عبد الرحمن الطاهر محمد السورتي 16/1 - المنشورات العلمية - بيروت .

(5) التحرير والتنوير 186/18 ، 187 .

بالفحشاء والمنكر ، فما كان لربِّ الأرض والسَّماء وما بينهما أن يخذل أوليائه ، ويدعهم لآثار الشَّيْطَان وطرقه فبرأها بقرآنه الكريم حتى تظَلَّ الألسنة منذ نزوله وإلى يوم القيامة تُرْتَلُّ براءتها ، وتلهج بعفتها ، وتحفظ لها كرامتها وحقها ، وفي ذلك ذكرى للمؤمنين والمصدِّقين بكتاب ربِّهم ، وكذلك المؤمنات والمصدِّقات ، فيأتي النَّداء من ربِّ العباد - ﷻ - : " للمؤمنين به : يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، لا تسلكوا سبيل الشَّيْطَان وطرقه ، ولا تقتفوا آثاره ، بإشاعتكم الفاحشة في الذين آمنوا وإذاعتكموها فيهم وروايتكم ذلك عنمن جاء به ، فإنَّ الشَّيْطَان يأمر بالفحشاء ، وهي الزَّنا ، والمكر من القول (1) " .

فليحذر الصَّالحون من عباد الله - ﷻ - من هدم تمثال القيم والأخلاق ، ومن ضرب عنوان الصَّلاح والرَّشاد ؛ وذلك باتباع خُطوات الشَّيْطَان وآثاره ، وطرقه العامَّة والخاصَّة ، فاتِّباعه فيه إثم وضلال ، والنَّجاة منه لا تكون إلا باتباع هدي خير العباد محمد - ﷺ - ، ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (2) .

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ : سبيل الخوف (خوف)

تظَلُّ قلوب المؤمنين من عباد الله في رباط وارتباط بدينهم ، يحيون في ظلال منهجه وتقديس تعاليمه ، تبدو أمارات الأمن والأمان في حياتهم ، تحفُّهم السَّكينة ، ويظلُّهم الله في ظلِّه ، ولكن الشَّيْطَان يترَبَّص بهم ويكيد لهم ، فيريد أن يهدم عالمهم ، ويخرجهم من جنَّة ربِّهم ، فيسيطر عليهم ببعض الأفكار والأوهام والأكاذيب التي لا علاقة لها بعالم الواقع حتى يسلب منهم كل مقوِّمات التَّفكير الصَّحيح فيزرع فيها المخاوف التي تصدُّهم عن منهج ربِّهم ، وبالتالي يسرق من بين أحضانهم كل سبيل الرَّاخة والسَّعادة .

وهذا ظنُّه ووهمه الخاطيء الذي شرعه لعباد الله الصَّالحين في هذا السَّبيل الذي يسمى بسبيل الخوف كما صَوَّره القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (3) .

(1) جامع البيان 134/19 .

(2) آل عمران الآية 31 .

(3) آل عمران الآية 175 .

والخوف توقع مكروه عن أمانة مظنونة أو معلومة⁽¹⁾ .

وقد حاول الشَّيْطَانُ أن يملك بسبيل (الخوف) قلوب المؤمنين من عباد الله الصَّالِحِينَ حتى ينزع الإيمان من قلوبهم ، فيوهمهم ويرهبهم بكثرة عدوهم من المشركين ، فنَّبَهُمُ اللهُ إلى خطر هذا الأمر : " إِنَّمَا الَّذِي قَالَ لَكُمْ ، أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ : (إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ)⁽²⁾ ، فَخَوَّفَكُمْ بِجَمُوعِ عَدُوِّكُمْ ، وَمَسِيرِهِمْ إِلَيْكُمْ ، مِنْ فَعْلِ الشَّيْطَانِ ، أَلْقَاهُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ مِنْ قَالٍ لَكُمْ ، يَخَوِّفُكُمْ بِأَوْلِيَائِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ - أَبِي سَفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ مِنْ قُرَيْشٍ - ، لِتَرْهَبُوهُمْ ، وَتَجْتَنِبُوا عَنْهُمْ⁽³⁾ ... " .

فتخويف الشَّيْطَانِ لِلْمُؤْمِنِينَ عَنْ طَرِيقِ " تَعْظِيمِ أَوْلِيَائِهِ فِي أَعْيُنِكُمْ ... عَنْ السُّدِيِّ : ثُمَّ ذَكَرَ الْمُشْرِكِينَ وَعَظَمَهُمْ فِي أَعْيُنِ الْمُنَافِقِينَ ، إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ . قَالَ : يَعْظُمُ أَوْلِيَاءَهُ فِي صُدُورِكُمْ فَتَخَافُوهُمْ⁽⁴⁾ " .

وقد " قال ابن عباس وغيره المعنى يَخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ ، أَي بِأَوْلِيَائِهِ أَوْ مِنْ أَوْلِيَاءِهِ ، فَحَذَفَ حَرْفَ الْجَرِّ وَوَصَلَ الْفِعْلَ إِلَى الْاسْمِ فَنَصَبَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا ﴾⁽⁵⁾ : أَي لِيُنذِرَكُمْ بِأَسِّ شَدِيدٍ ، أَي يَخَوِّفُ الْمُؤْمِنَ بِالْكَافِرِ⁽⁶⁾ " .

ولكن يَظَلُّ الخوف من الله أقرب إلى قلوب المؤمنين من تخويف الشَّيْطَانِ لهم ، وما يلقيه عن طريق أوليائه من بثِّ الفرع والرُّعب فيهم ، ومحاولة التَّفْرِيقِ وبثِّ روح الخزلان بينهم ، حتى يقعدوا عن قتال عدوهم ، فيظل تعظيم الخالق ووعده بالنَّصْرِ لهم أثبت عندهم من رؤية الشَّمْسِ فِي وَضْحِ النَّهَارِ ، وَمِنْ حَرَكَاتِ أَجْسَادِهِمُ الَّتِي يَحْيُونَ بِهَا ، وَيَصْدُرُونَ أَوْامِرَهُمْ

(1) المفردات ص 229.

(2) آل عمران من الآية 173 .

(3) جامع البيان 416/7 . وينظر : تفسير مقاتل بن سليمان 1 / 205 . وقد قيل : إنَّ المراد هذا الذي يَخَوِّفُكُمْ بِجَمْعِ الْكُفَّارِ شَيْطَانٍ مِنْ شَيْطَانِ الْإِنْسِ ، إِمَّا نَعِيمِ بْنِ مَسْعُودٍ أَوْ غَيْرِهِ . الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ 283/4 .

(4) تفسير ابن أبي حاتم 3/820 ، 821 . وينظر : جامع البيان 7/417 ، والدر المنثور 2/391 .

(5) الكهف من الآية 2 .

(6) الجامع لأحكام القرآن 4/282 . وينظر : معاني القرآن وإعرابه 1/490 .

لها فتسمع وتطيع ، فتأجروا مع ربهم فربحت تجارتهم ، حتى يئس الشيطان أن يعبد بأرضهم ، أو أن يجد له مسكنًا في قلوبهم .

" إنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ الَّذِي يَضْحَكُ مِنْ شَأْنِ أَوْلِيَائِهِ ، وَيَلْبَسُهُمْ لِبَاسَ الْقُوَّةِ وَالْقُدْرَةِ ، وَيُوقِعُ فِي الْقُلُوبِ أَمَّهُمْ ذُو حَوْلٍ وَطُولٍ ، وَأَتَمَّهُمْ يَمْلِكُونَ النَّفْعَ وَالضَّرَّ ، ذَلِكَ لِيَقْضِيَ بِهِمْ لِبَانَاتِهِ وَأَعْرَاضَهُ ، وَلِيَحَقِّقَ بِهِمُ الشَّرَّ فِي الْأَرْضِ وَالْفَسَادَ ، وَلِيَخْضَعَ لَهُمُ الرَّقَابَ وَيَطْوِعَ لَهُمُ الْقُلُوبَ ، فَلَا يَرْتَفِعُ فِي وَجْهِهِمْ صَوْتُ الْإِنْكَارِ ؛ وَلَا يَفْكَرُ أَحَدٌ فِي الْإِنْتِفَاضِ عَلَيْهِمْ ، وَدَفْعِهِمْ عَنِ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ . وَالشَّيْطَانُ صَاحِبُ مَصْلَحَةٍ فِي أَنْ يَنْتَفِشَ الْبَاطِلُ ، وَأَنْ يَتَضَخَّمَ الشَّرُّ ، وَأَنْ يَتَبَدَّى قُوَّةً قَادِرًا قَاهِرًا بَطَاشًا جَبَّارًا ، لَا تَقْفُ فِي وَجْهِهِ مَعَارِضَةٌ ، وَلَا يَصْمَدُ لَهُ مَدَافِعُ ، وَلَا يَغْلِبُهُ مِنَ الْمَعَارِضِينَ غَالِبٌ ، الشَّيْطَانُ صَاحِبُ مَصْلَحَةٍ فِي أَنْ يَبْدُو الْأَمْرَ هَكَذَا . فَتَحْتِ سِتَارِ الْخَوْفِ وَالرَّهْبَةِ ، وَفِي ظِلِّ الْإِرْهَابِ وَالْبَطْشِ ، يَفْعَلُ أَوْلِيَائِهِ فِي الْأَرْضِ مَا يَقْرُ عَيْنَهُ ! يَقْلُبُونَ الْمَعْرُوفَ مَنكَرًا ، وَالْمَنكَرَ مَعْرُوفًا ، وَيَنْشُرُونَ الْفَسَادَ وَالْبَاطِلَ وَالضَّلَالَ ، وَيَخْفَتُونَ صَوْتَ الْحَقِّ وَالرُّشْدِ وَالْعَدْلِ ، وَيَقِيمُونَ أَنْفُسَهُمْ آلِهَةً فِي الْأَرْضِ تَحْمِي الشَّرَّ وَتَقْتُلُ الْخَيْرَ ، دُونَ أَنْ يَجْرُوا أَحَدًا عَلَى مَنَاضِحَتِهِمْ وَالْوُقُوفِ فِي وَجْهِهِمْ ، وَمَطَارِدَتِهِمْ وَطَرْدِهِمْ مِنْ مَقَامِ الْقِيَادَةِ ، بَلْ دُونَ أَنْ يَجْرُوا أَحَدًا عَلَى تَزْيِيفِ الْبَاطِلِ الَّذِي يَرُوجُونَ لَهُ ، وَجَلَاءِ الْحَقِّ الَّذِي يَطْمَسُونَهُ . وَالشَّيْطَانُ مَاكَرُ خَادِعٌ غَادِرٌ ، يَحْتَفِي وَرَاءَ أَوْلِيَائِهِ ، وَيَنْشُرُ الْخَوْفَ مِنْهُمْ فِي صُدُورِ الَّذِينَ لَا يَحْتَاطُونَ لَوْسُوسَتِهِ ، وَمِنْ هُنَا يَكْشِفُهُ اللَّهُ ، وَيُوقِفُهُ عَارِيًّا لَا يَسْتَرُهُ ثَوْبٌ مِنْ كَيْدِهِ وَمَكْرِهِ ، وَيَعْرِفُ الْمُؤْمِنُونَ الْحَقِيقَةَ : حَقِيقَةَ مَكْرِهِ وَوَسْوسَتِهِ ، لِيَكُونُوا مِنْهَا عَلَى حَذَرٍ ، فَلَا يَرْهَبُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ وَلَا يَخَافُوهُمْ ، فَهَمُّهُ هُوَ أَوْضَعُ مِنْ أَنْ يَخَافَهُمْ مَوْمِنٌ يَرْكُنُ إِلَى رَبِّهِ ، وَيَسْتَنْدِ إِلَى قُوَّتِهِ . إِنَّ الْقُوَّةَ الْوَحِيدَةَ الَّتِي تَخْشَى وَتَخَافُ هِيَ الْقُوَّةُ الَّتِي تَمْتَلِكُ النَّفْعَ وَالضَّرَّ ، هِيَ قُوَّةُ اللَّهِ ، وَهِيَ الْقُوَّةُ الَّتِي يَخْشَاهَا الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَهَمُّ حِينَ يَخْشَوْنَهَا وَحَدَهَا أَقْوَى الْأَقْوِيَاءِ ، فَلَا تَقْفُ لَهُمْ قُوَّةٌ فِي الْأَرْضِ ، لَا قُوَّةَ الشَّيْطَانِ وَلَا قُوَّةَ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (1) ."

ومن هنا فسأت الشيطان واضحة المعالم ، بارزة بروز الشمس في كبد السماء مع

(1) آل عمران من الآية 175 . في ظلال القرآن 521/1 .

الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَلَكِنَّهَا مَبْهَمَةٌ مَعَ أَوْلِيَائِهِ الَّذِينَ عَظَّمُوهُ وَنَصَرُوهُ ، وَجَعَلُوهُ هَامَةً فِي عَالَمِ الْأَقْرَامِ : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ (1).

وقد قيل في بعض الآراء إن تخويف الشيطان في الآية يتجه إلى أوليائه المؤمنين به ، والخاضعين والمستسلمين له ، ف " المعنى يخوف أوليائه المنافقين ، ليقعدوا عن قتال المشركين ، فأما أولياء الله فإنهم لا يخافونه إذا خوفهم (2) " .

فعلى السنة هؤلاء ظهرت كلمة الإسلام ، وأنطقهم الله بها ، ولكن قلوبهم منها خواء وأفئدتهم هواء ، قبلتهم الشيطان ، ورأس ما لهم الغدر والخيانة ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ (3) .

الصُّورَةُ الثَّلَاثَةُ : سَبِيلُ الرَّجْزِ (رَجَز)

يعيش الصَّالِحُونَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَعَ رَبِّهِمْ فِي عَالَمِ عُنْوَانِهِ الصِّدْقِ وَالْإِحْلَاصِ وَالتَّقْوَى وَالصَّلَاحِ ، تَسْعِدُ قُلُوبَهُمْ وَتَطْمِئِنُّ جَوَارِحُهُمْ ، فِي حَالَةٍ رَبَّانِيَّةٍ وَعِلَاقَةٍ إِيْمَانِيَّةٍ ، وَفِي بَيْتِ هَادِيٍّ تَنْسُجُ خِيوطُهُ بِالْمَحَبَّةِ وَالْوَفَاءِ ، يَرْقُونَ إِلَى قِمَّةِ الطَّاعَةِ وَالْوَلَاءِ فِي عِلَاقَتِهِمْ بِخَالِقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَلَكِنْ كَيْفَ يَهْنَأُ الشَّيْطَانُ وَخَصْمُهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ الرَّبَّانِيَّةِ وَالصِّفَةِ الْإِيْمَانِيَّةِ؟ .

يَمْنِي الشَّيْطَانُ نَفْسَهُ بِفُرْصَةٍ ذَهَبِيَّةٍ يَثْنِي بِهَا هَوْلَاءَ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِمْ وَتَوْحِيدِ كَلِمَتِهِمْ ، فَيَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الْمُنْكَرَاتِ وَيُجَمِّلُهَا فِي أَعْيُنِهِمْ حَتَّى يَزِيلَ مِنْ قُلُوبِهِمْ قِلَاعَ الْإِيْمَانِ وَحِصُونَ هَدْيِ الرَّحْمَنِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيهِوِي بِهِمْ مِنْ قِمَّةِ الطَّاعَةِ إِلَى قَاعِ الْمَعْصِيَةِ ، وَمِنْ بِيوتِ أُسُسِ بِنْيَانِهَا عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانِ إِلَى بَيْتِ بُنِي عَلَى شِفَا جُرْفِ هَارٍ ، وَلَكِنْ تَحْقِيقُ الْأَمَانِيِّ لَا يَكُونُ بِالتَّمَنِّيِّ بَلْ يَحْتَاجُ إِلَى كَثِيرٍ مِنْ وَسَائِلِ الْجِدِّ وَالْاجْتِهَادِ ، وَسَبَلِ الْإِغْوَاءِ وَالضَّلَالِ ، وَجِيْشِ جَرَارٍ يَمْتَلِكُ أَسَالِيْبَ الْفِتْنَةِ وَفَنونَ الْقِتَالِ ، وَالصَّحَابَةَ الْكِرَامِ - رِضْوَانِ اللَّهِ عَنْهُمْ - يَعِيشُونَ مَعَ نَبِيِّهِمْ - ﷺ - فِي حَالَةٍ إِيْمَانِيَّةٍ قَدْ تَصَلَّى إِلَى دَرَجَةِ الْكَمَالِ ، يَقْتَفُونَ أَثْرَهُ ، وَيَسِيرُونَ عَلَى نَهْجِهِ وَخَطَاهُ ، وَلَكِنْ الشَّيْطَانُ لَا تَقْرَ عَيْنَهُ وَلَا تَهْدَأُ نَفْسَهُ ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَرَى لِسْبَلَهُ وَطَرَقَهُ

(1) الأنعام من الآية 125 .

(2) الجامع لأحكام القرآن 282/4 . وينظر : معاني القرآن وإعرابه 490/1 .

(3) الحشر من الآية 14 .

واقعا ملموسا في حياة هؤلاء العظام .

و (الرَّجْزُ) هو سبيل الشَّيْطَانِ في هذه الصُّورَة التي يقول فيها رَبُّنَا - ﷻ - : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رَجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ (1) .

والرَّجْزُ هو القَدْرُ مثل الرَّجْسِ (2)، وقيل معنى الرَّجْزِ في القرآن: هو العذاب المُقْلِقُ لشِدَّتِه ، وله قلقلة شديدة متتابعة (3) .

وهذه الآية تعرض لبعض مواقف الصحابة في حربهم مع المشركين واستغلال الشَّيْطَانِ لها ، حيث يجاهد نفسه في فرض سيطرته عليهم ، وتشويش عقيدتهم ، وإشعال نار الفتنة في قلوبهم ، حيث " بات المسلمون ليلة بدر على غير ماء ، فأصبحوا مجننين ، فوسوس إليهم الشَّيْطَانُ فقال : تزعمون أنكم على دين الله وأنتم على غير الماء وعدوكم على الماء تصلون مجننين ، فأرسل الله عليهم السَّاءَ وشربوا واغتسلوا ؛ وأذهب الله عنهم رَجْزَ الشَّيْطَانِ يعني وسوسته ، وكانوا في رمل تغيب فيه الأقدام فشدَّه المطر حتى اشتدَّ عليه الرِّجال ، فذلك قوله ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ (4) " .

وبذلك أذهب الله عنهم رجز الشَّيْطَانِ ، والذي يمكن توجيه الدَّلالة فيه إلى ما أوقعه في قلوبهم من الصَّلَاةِ بغير طهور ، أو ما أوقعه في قلوبهم من قوله ليس لكم بهؤلاء طاقة فيضعفوا عن قتال عدوهم (5) .

إذا فالرَّجْزُ قد يكون حِسِّيًّا أو معنويًّا ، حيث قيل : " الرَّجْزُ القَدْرُ والمراد الوسخ الحِسِّيُّ وهو النَّجْسُ ، والمعنوي المعبر عنه في كتب الفقه بالحدث ، والمراد الجنابة ، وذلك هو الذي يعم الجيش كله ، فلذلك قال : ﴿ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رَجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ ، وإضافته إلى

(1) الأنفال الآية 11 .

(2) الصحاح 3/878 .

(3) لسان العرب 3/1589 .

(4) معاني القرآن للفراء 1/404 . وينظر : جامع البيان 13/425 ، وتفسير ابن أبي حاتم 5/1665 ، والمحرم الوجيز 8/25 .

(5) ينظر : جامع البيان 13/425 ، وتفسير ابن أبي حاتم 5/1665 .

الشَّيْطَانُ لَأَنَّ غَالِبَ الْجَيْشِ لَمَّا نَامُوا احْتَلَمُوا فَأَصْبَحُوا عَلَى جَنَابَةٍ ، وَذَلِكَ قَدْ يَكُونُ خَوَاطِرُ الشَّيْطَانِ يَخِيلُهَا لِلنَّائِمِ لِيَفْسِدَ عَلَيْهِ طَهَارَتَهُ بَدُونَ اخْتِيَارِ طَمَعًا فِي تَثَاقلِهِ عَنِ الْاِغْتِسَالِ حَتَّى يَخْرُجَ وَقْتُ صَلَاةِ الصُّبْحِ ؛ وَلِأَنَّ فَقْدَانَ الْمَاءِ يَلْجِئُهُمْ إِلَى الْبَقَاءِ فِي تَنْجُسِ الثِّيَابِ وَالْأَجْسَادِ ، وَالنَّجَاسَةِ تَلَاثُمُ طَبَعِ الشَّيْطَانِ (1) .

ومع ذلك فما لَطَّخَهُ بِكُمْ مِنْ قَدَارَةٍ فِي الْجِسْمِ بِالْحَدِّثِ ، أَوْ فِي الْقَلْبِ بِالْوَسْوَسَةِ ، فَمَا الْمَطَرُ سَيَطْهَرُكُمْ جَسْمِيًّا وَنَفْسِيًّا بِالْوَضُوءِ وَالصَّلَاةِ (2) .

" والمدد على هذا النحو مدد مزدوج : ماديٌّ وروحي ، فالماء في الصحراء مادة الحياة ، فضلا على أن يكون أداة النَّصْرِ ، والجيش الذي يفقد الماء في الصَّحْرَاءِ يفقد أصحابه قبل أن يواجه المعركة ، ثم هذه الحالة النَّفْسِيَّةُ التي صاحبت الموقف ووسوس بها الشَّيْطَانُ ! حالة التَّحَرُّجِ مِنْ آدَاءِ الصَّلَاةِ عَلَى غَيْرِ طَهْرٍ لِعَدَمِ وُجُودِ الْمَاءِ ، (ولم يكن قد رخص لهم بعد في التَّيْمَمِ ، فقد جاء هذا متأخراً في غزوة بني المصطلق في السَّنَةِ الْخَامِسَةِ) ، وهنا تثور الهواجس والوساوس ، ويدخل الشَّيْطَانُ مِنْ بَابِ الْإِيْمَانِ لِيَزِيدَ حَرَجَ النَّفُوسِ وَوَجَلَ الْقُلُوبِ ! والنُّفُوسُ الَّتِي تَدْخُلُ الْمَعْرَكَةَ فِي مِثْلِ هَذَا الْحَرَجِ وَفِي مِثْلِ هَذَا الْقَلْقِ تَدْخُلُهَا مَزْعَزَعَةٌ مَهْزُومَةٌ مِنْ دَاخِلِهَا ، وَهَذَا يَجْعَلُ الْمَدَدَ وَتَجْيِئَ النَّجْدَةَ ... وَيَتِمُّ الْمَدَدُ الرَّوْحِيُّ بِالْمَدَدِ الْمَادِيِّ ؛ وَتَسْكُنُ الْقُلُوبُ بِوُجُودِ الْمَاءِ ، وَتَطْمَئِنُّ الْأَرْوَاحُ بِالطَّهَّارَةِ ، وَتَثْبِتُ الْأَقْدَامُ بِثَبَاتِ الْأَرْضِ وَتَمَاسِكِ الرَّمَالِ (3) .

وعلى آيَّةٍ حَالٍ فَمَا إِنْ أَنْزَلَ اللَّهُ مَاءً الْمَطَرِ حَتَّى ذَهَبَ وَزَالَ عَنْهُمْ رِجْزُ الشَّيْطَانِ وَوَسَاوِسِهِ الَّتِي كَادَ بِهَا أَنْ يَفْتِنَهُمْ فِي دِينِهِمْ ، وَيَلْبَسَ عَلَيْهِمْ عَقِيدَتَهُمْ ، وَلَكِنْ رَحِمَهُ اللَّهُ وَعَنَايَتَهُ كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَيْهِمْ ، فَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الصَّبْرَ فَثَبَتُوا فِي وَجْهِهِمْ عَدُوَّهُمْ حَتَّى كَتَبَ لَهُمُ النَّصْرَ عَلَيْهِمْ ، فَمَا كَانَ لِلشَّيْطَانِ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّحْبِ الْعِظَامِ مِنْ سَبِيلٍ .

وفي التَّطْهِيرِ بِالْمَاءِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنْ إِطْفَاءَ رِجْزِ الشَّيْطَانِ وَوَسْوَسَتِهِ كِإِطْفَاءِ نَارِ الْغَضَبِ وَاشْتِعَالِهِ ، فَالْغَضَبُ نَتَاجٌ مِنْ خَطَرَاتِهِ ، فَإِذَا غَضِبَ الْمُؤْمِنُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ ، أَوْ سَيَطَرَ عَلَيْهِ

(1) التحرير والتنوير 279/9 .

(2) القاموس القويم 255/1 . وينظر : معاني القرآن للفراء 242/2 ، والمفردات ص 274 .

(3) في ظلال القرآن 1485/3 .

شيطانه فليذهب إلى وضوئه حتى يطمئن فؤاده وتسكن جوارحه ، فتستقر عقيدته على توحيد ربّه وطاعته ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (1) .

الصورة الرابعة : سبيل الزلل (ذل)

لن تتحقق الآمال بالخلود إلى النوم ، ولن تكون الأحلام حقيقة مشاهدة بالدعة والركون إلى الراحة ، إنّما يحتاج صراع الحياة إلى أصحاب النفس الطويل ، فقد يخبو المرء في حياته ، ولكن ليس معنى ذلك أن ينكسر أو يظل قابعا في كبوته إنّما عليه أن يقف ويصلب ويشتدّ صلبه حتى يعود من محتته كجواد أحسن تدريبه فبرع وفاق الأقران .

وكذلك يكون الشيطان ، فليس معنى فشله في مهمّة من المهمات أن يصاب بالكسل والإحباط ، أو أن يصاب بالذلة والهوان ، فلن يضعف ذلك من عزيمته أو يثنيه عن هدفه ، ولكن يجهّز نفسه ويعود للسّاحة بعدما تعلّم الدرس وأنقن فنونه بخبراته الطويلة التي مارسها مع جميع بني آدم ، فيزداد بها مكرًا ودهاء وخداعًا .

فالشيطان قد عرض رجزه على الصّحابة الكرام - رضوان الله عنهم - في سبيل سابق فوجد بها قلوبًا تمكّن منها الإيثار ، وصدًا منيعًا في جميع وجوه الذّنوب والمعاصي والآثام ، فأبى كبرياؤه أن يرفع راية الاستسلام فحوّل ردائه إلى سبيل آخر من سبل الإغراء والوسوسة والخداع .

والزّلة هي هذا السبيل الذي حاول الشيطان من خلاله أن يفتح بابًا إلى قلوب الصّحابة الكرام - رضوان الله عنهم - جسّدته لفظة (أَسْتَرْلَهُمْ) في قول الله - ﷻ - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ آتَتْهُمُ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَرَلَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (2) .

فهذه الآية تعرض لحال الذين تولّوا عن قتال المشركين عامّة يوم أُحد ، وذلك بسبب ما زيّنه الشيطان لهم من خطايا أسلفت منهم ، فهم - رضوان الله عنهم - " لم يتولّوا في قتالهم على جهة المعاندة ، ولا على الفرار من الزحف رغبة في الدنيا خاصّة ، وإنما ذكّرههم الشيطان

(1) الزمر من الآية 21 .

(2) آل عمران الآية 155 .

خطايا كانت لهم فكرهوا لقاء الله إلا على حال يرضونها ، فلذلك عفا عنهم وإلا فأمر القتال والتويُّ في الجهاد إذا كانت العُدَّة أقل من المثلين أو كانت العُدَّة مثلين ، فالفرار أمر عظيم (1) .
وقيل بأن استزلال الشَّيْطَان في الآية يَتَّجِه إلى هؤلاء الرُّماة خاصَّة ، وذلك من خلال " مفارقة موقفهم وعصيان أمر الرِّسُول ، والتنازع ، والتَّعجيل إلى الغنيمة ، والمعنى أن ما أصابهم من آثار الشَّيْطَان وما هم فيه ببعض ما كسبوا من صنيعهم ، والمقصد من هذا إلقاء تبعة ذلك الانهزام على عواتقهم (2) " .

وعلى وجه العموم فقد عرض بعض العلماء عدَّة دَلالات لقوله تعالى : (مَا كَسَبُوا) منها : " قال الحسن (مَا كَسَبُوا) قبولهم من إبليس ما وسوس إليهم . وقال الكلبي : زَيْن لهم الشَّيْطَان أعمالهم . وقيل : لم يكن الانهزام معصية ، لأنَّهم أرادوا التَّحَصُّن بالمدينة ، فيقطع العدو طمعه فيهم لما سمعوا النبي - ﷺ - قُتِل ، ويجوز أن يقال : لم يسمعوا دعاء النبي - ﷺ - للهول الذي كانوا فيه . ويجوز أن يقال : زاد عدد العدو على الضَّعف ؛ لأنهم كانوا سبعمائة والعدد ثلاثة آلاف ، وعند هذا يجوز الانهزام ولكن الانهزام عن النبي - ﷺ - خطأ لا يجوز ، ولعلمهم توهموا أن النبي - ﷺ - انحاز إلى الجبل أيضًا ، وأحسنها الأول ، وعلى الجملة فإن حمل الأمر على ذنب محقق فقد عفا الله عنه ، وإن حمل على انهزام مسوغ فالآية فيمن أبعِد في الهزيمة وزاد على القدر المسوغ (3) " .

إذا فهذه الآية فيها " يخبر تعالى عن حال الذين انهزموا يوم أُحُد وما الذي أوجب لهم الفرار ، وأنه من تسويل الشَّيْطَان ، وأنه تسلَّط عليهم ببعض ذنوبهم ، فهم الذين أدخلوه على أنفسهم ، ومكَّنوه بما فعلوا من المعاصي لأنَّها مركبه ومدخله ، فلو اعتصموا بطاعة ربِّهم لما كان له عليهم من سلطان ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ ﴾ (4) ، ثم أخبر أنه عفا عنهم بعد ما فعلوا ما يوجب المؤاخذة ، وإلا فلو واخذهم لأستأصلهم (5) " .

(1) معاني القرآن وإعرابه 481/1 .

(2) التحرير والتنوير 140/4 .

(3) الجامع لأحكام القرآن 244/4 .

(4) الإسراء من الآية 65 .

(5) معالم التنزيل 153/1 .

فآلية الكريمة ترفع شعار غلق جميع أبواب الشياطين ، وبناء سدّ منيع لمنعهم من التسلُّل إلى قلوب المخلصين من عباد الله - ﷻ - حتى تظلَّ في مأمن من وساوسهم وهواجسهم ، فالآية " في عمومها تصوير لحال النَّفس البشريَّة حين ترتكب الخطيئة، فتفقد ثققتها في قوتها، ويضعف بالله ارتباطها ، ويختل توازنها وتماسكها ، وتصبح عرضة للوساوس والهواجس ، بسبب تخلخل صلتها بالله وثقتها من رضاه ! وعندئذ يجد الشيطان طريقه إلى هذه النَّفس ، فيقودها إلى الزَّلة بعد الزَّلة ، وهي بعيدة عن الحمى الآمن ، والركن الركين . ومن هنا كان الاستغفار من الذَّنْب هو أول ما توجَّه به الرِّبُّون الذين قاتلوا مع النبيين في مواجهة الأعداء. الاستغفار الذي يرُدُّهم إلى الله ، ويقوِّي صلتهم به، ويعني قلوبهم من الأرجحة ، ويطردها عنها الوسواس ، ويسدُّ الثَّغرة التي يدخل منها الشَّيطان ، ثغرة الانقطاع عن الله ، والبعد عن حماه ، هذه الثَّغرة التي يدخل منها فيزل أقدامهم مرَّة ومرَّة ، حتى ينقطع بهم في التيه ، بعيداً بعيداً عن الحمى الذي لا ينالهم فيه ! ويحدِّثهم الله أن رحمته أدركتهم ، فلم يدع الشَّيطان ينقطع بهم ، فعفا عنهم ، ويعرفهم بنفسه - سبحانه - فهو غفور حلِيم ، لا يطرده الخطاة ولا يعجل عليهم ، متى علم من نفوسهم التطلُّع إليه ، والاتصال به ، ولم يعلم منها التمرد والتفلت والإباق (1) ! " .

فهذه رسالة إلى كل من أدركه الزَّلزل فوق في مخالفة ، أو لبس عليه الشَّيطان أمر دينه ، أو تاهت به السُّبُل أن يعلم أن مغفرة الله وعفوه وحلمه أقرب إليه من حبل الوريد ، وأن من أدركته سحائب الرحمة ، ونسمات الهدى ، ورحيق الرِّشاد فهو العبد السعيد ، ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْدُوذٍ ﴾ (2) .

الصُّورة الخامسة : سبيل الطائف (ط و ف)

تحتاج السَّباحة إلى مهارات وقدرات خاصَّة ، وكذلك الرِّماية والفروسيَّة ، وكل مجال تجد فيه باباً من أبواب المنافسة ، فتلاحظ البراعة والتفوق لمن يجيد فنَّ التَّعامل مع خصمه . وحال الشَّيطان كحال الصائد البارح الذي يحوم حول فريسته التي يريد أن ينقضَّ عليها ، فيحقِّق من خلالها آماله وأحلامه ، فهو صاحب موهبة خاصَّة وقدرات هائلة تمكِّنه من

(1) في ظلال القرآن 1/497 ، 498 .

(2) هود الآية 108 .

اختراق قلوب بني آدم والسَّيطرة عليها ، وخاصة هؤلاء الشُّكاري الذين تمكَّن منهم حبُّ الدُّنيا وكراهية الموت ، أما الصَّالحون فلا سبيل إلى استعباد قلوبهم .

والشَّيطان في هذا السبيل يقدِّم أنموذجاً مصغراً يُجسِّد من خلاله صورة من يحوم حول حمى بني آدم فيداعب أفكارهم وخيالاتهم ، ويسرح بها في عالم الفضاء ، فيخيِّل إليهم أن الحلم حقيقة والوهم صدق ويقين ، حيث يأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيماهم وعن شمائلهم ، في صحوهم ومنامهم ، في جدِّهم وهزلهم ، في شبابهم وأراذل عمرهم ، يقدِّم لهم ما يشتهون ويحقِّق لهم ما يتمنون في عالم الخيال حتى يسيل لعابهم ويقعون فريسة لمكره وخداعه، ولكن أنَّى يتحقَّق له ذلك في عالم عنوانه : ﴿ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ (1)؟! .

وهذا هو سبيل (الطَّائِف) الذي عرض له القرآن الكريم في قول ربِّنا - ﷻ - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ . وَإِحْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ (2) .

فالطَّواف هو : " المشي حول الشيء . ومنه الطَّائِف لمن يدور حول البيت حافظاً . يقال : طاف به يطوف (3) " .

" فالطَّائِف هو الذي يمشي حول المكان ينتظر الإذن له ، فهو النازل بالمكان قبل دخوله المكان ، أطلق هنا على الخاطر الذي يخطر في النَّفس يبعث على فعل شيء نهي الله عن فعله ، شَبَّه ذلك الخاطر في مبدأ جولاته في النَّفس بحلول الطائف قبل أن يستقرَّ ، وكانت عادة العرب أن القادم إلى أهل البيت ، العائد برَبِّ البيت ، المستأنس للقرى يستأنس ، فيطوف بالبيت ، ويستأذن (4) " .

وأما " الطَّائِف من الشَّيطان : مَسَّهُ للإنسان بالوسوسة ، فهو يأتيه من كل جهة ليضلَّه ولا ينجِّيه منه إلا ذكر الله (5) " .

(1) الأحزاب من الآية 23 .

(2) الأعراف الآيتان 201 ، 202 .

(3) المفردات ص 412 . وينظر : لسان العرب 2722/4 .

(4) التحرير والتنوير 232/9 .

(5) القاموس القويم 409/1 .

وطائف الشَّيْطَانِ فِي الْآيَةِ قَدْ تَبَّجَه دَلَالَتُهُ نَحْوُ " الْغَضَبِ ، أَوْ إِذَا زَلُّوا تَابُوا أَوْ أَلَمَّةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ، أَوْ طَائِفٍ مِنَ الطُّوفَانِ ، أَيْ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ بَوْسَاوَسُهُ بِأَمْرِهِمُ بِالْمَعْصِيَةِ (1) " .
 " قَالَ الْأَزْهَرِيُّ : الطَّيْفُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الْجُنُونُ ، وَقِيلَ لِلْغَضَبِ طَيْفٌ لِأَنَّ الْغَضْبَانَ يَشْبَهُ الْمَجْنُونَ . وَقِيلَ سُمِّيَ الْجُنُونُ وَالْغَضَبُ وَالْوَسْوَسَةُ طَيْفًا لِأَنَّهُ لَمَّةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَشْبَهُ لَمَّةَ الْخَبَالِ فَذَكَرَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى النَّزْعَ وَهُوَ أَخْفُ مِنَ الطَّيْفِ الْمَذْكُورِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ؛ لِأَنَّ حَالَ الشَّيْطَانِ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ أضعف من حاله مع غيرهم (2) " .

فهذه الآية الكريمة تعرض لحال المؤمنين الصادقين مع أنفسهم المخلصين لربهم ، يحاول الشَّيْطَانُ أَنْ يَتِمَكَّنَ مِنْهُمْ فِي كُلِّ طَرِيقٍ سَلَكَهُ ، أَوْ مِنْهَجٍ اتَّبَعُوهُ ، وَلَكِنْ لَنْ يَكُونَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ ، فِي حِينٍ يَتِمَكَّنُ مِنْ قُلُوبِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اسْتَمَعُوا وَأَنْصَتُوا لَهُ ، وَاتَّبَعُوا هُدْيَهُ ، وَسَارُوا عَلَى دَرَبِهِ ، وَهَذَا هُوَ عِنْوَانُ الْآيَةِ الَّتِي تَلِيهَا .

وهنا تتجلى ملامح الإيمان والكفر في أبرز صورها ، حيث سيطرت مخافة الله على قلوب المخلصين ، ومخافة الشَّيْطَانِ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ، حَيْثُ تَجِدُ أَنَّ " ﴿ الَّذِينَ اتَّقَوْا اللَّهَ مِنْ خَلْقِهِ ، فَخَافُوا عِقَابَهُ ، بَادَاءَ فَرَائِضِهِ ، وَاجْتِنَابَ مَعْصِيَتِهِ ﴾ إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا ﴾ ... إِذَا أَلَمَّ بِهِمْ لَمْ يَلْمِ مِنَ الشَّيْطَانِ مِنْ غَضَبٍ أَوْ غَيْرِهِ مِمَّا يَصُدُّ عَنْ وَاجِبِ حَقِّ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، تَذَكَّرُوا عِقَابَ اللَّهِ وَثَوَابَهُ ، وَوَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ ، وَأَبْصَرُوا الْحَقَّ فَعَمَلُوا بِهِ ، وَانْتَهَوْا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ فِيهَا فَرَضَ عَلَيْهِمْ ، وَتَرَكَوا فِيهِ طَاعَةَ الشَّيْطَانِ ... فَيَقَالُ : إِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا عَرَضَ لَهُمْ عَارِضٌ مِنْ أَسْبَابِ الشَّيْطَانِ ، مَا كَانَ ذَلِكَ الْعَارِضَ ، تَذَكَّرُوا أَمْرَ اللَّهِ وَانْتَهَوْا إِلَى أَمْرِهِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ ، فَإِنَّهُ يَعْنِي : فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ هَدَى اللَّهُ وَبَيَّانَهُ وَطَاعَتَهُ فِيهِ ، فَامْتَنَهُونَ عَمَّا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ طَائِفُ الشَّيْطَانِ ... عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ يَقُولُ : إِذَا هُمْ مَمْتَنُونَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ ، آخِذُونَ بِأَمْرِ اللَّهِ ، عَاصُونَ لِلشَّيْطَانِ (3) "

(1) ينظر : تفسير مجاهد 1/126 ، وتفسير ابن أبي حاتم 5/1640 ، و الدر المثور 3/632 ، ولباب التأويل 2/329 .

(2) لباب التأويل 2/329 .

(3) جامع البيان 13/333 ، 334 ، 373 . وينظر : تفسير مقاتل بن سليمان 1/430 .

ف " المتَّقِي إذا أَحَسَّ بذنب ، ومَسَّهُ طائف من الشَّيْطَان ، فأذنب بفعل محرَّم أو ترك واجب تذكَّر من أي باب أُتِيَ ، ومن أي مدخل دخل الشَّيْطَان عليه ، وتذكَّر ما أوجب الله عليه ، وما عليه من لوازم الإيمان ، فأبصر واستغفر الله تعالى ، واستدرك ما فرط منه بالتَّوبَة النَّصُوح والحسنات الكثيرة ، فرَّد شيطانه خاسئًا حسيِّرًا ، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه . وأما إخوان الشَّيَاطِين وأولياؤهم ، فإنَّهم إذا وقعوا في الذُّنُوب ، لا يزالون يمدونهم في الغيِّ ذنبًا بعد ذنب ، ولا يقصِّرون عن ذلك ، فالشَّيَاطِين لا تقصر عنهم بالإغواء ، لأنَّها طمعت فيهم ، حين رأتهم سلسبي القياد لها ، وهم لا يقصِّرون عن فعل الشرِّ (1) .

فالموازنة إذًا بين فريقين ، فريق تجنَّب طائف الشَّيْطَان ، وفريق وقع في شراكه ، فالآيتان " خير عن فريقَي الإيمان والكفر ، بأنَّ فريق الإيمان وأهل تقوى الله إذا استترَّ لهم الشَّيْطَان تذكَّروا عظمة الله وعقابه ، فكفَّتْهم رهبته عن معاصيه ، وردَّتْهم إلى التَّوبَة والإِنَابَة إلى الله ممَّا كان منهم زلَّةً ، وأنَّ فريق الكافرين يزيدهم الشَّيْطَان غيًّا إلى غيِّهم إذا ركبوا معصية من معاصي الله ، ولا يحجزهم تقوى الله ، ولا خوف الميعاد إليه عن التَّهادي فيها والزيادة منها ، فهم أبدًا في زيادة من ركوب الإثم ، والشَّيْطَان يزيده أبدًا ، لا يقصر الإنسيُّ عن شيء من ركوب الفواحش ، ولا الشَّيْطَان من مدَّه منه (2) .

فهؤلاء هم حزب الله الذين احتموا بحماه ، فأبصروا الحقَّ وأتبعوه ، وآووا الهدى ونصروه ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (3) ، ثم هؤلاء هم حزب الشَّيْطَان الذين كان لدرهم رفيقًا، ولو وحدتهم أنيسًا ولغربتهم أليفاً ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (4) .

وهكذا يطوف الشَّيْطَان بالمؤمنين من عباد الله - ﷻ - فيجد أعينًا لا تبصر ، وأذانًا لا تسمع ، وقلوبًا تمكَّن الإيمان منها ، فيسافر إلى أوليائه المخلصين له فيجد أرضًا خصبة يزرع فيها ويحصد في يوم وليلة ، حيث تبصر العيون ، وتسمع الآذان ، والقلوب التي تمكَّن الشرك والنِّفاق منها .

(1) معالم التنزيل 313/1 .

(2) جامع البيان 338/13 . وينظر: تفسير مقاتل بن سليمان 430/1 ، 431 .

(3) المجادلة من الآية 22 .

(4) المجادلة من الآية 19 .

ولذلك مع المؤمنين المخلصين جاء " التعبير بفعل (مَسَّهم) الدال على إصابة غير مكينة ، إشارة إلى أن الفزع إلى الله من الشيطان ، عند ابتداء إمام الخواطر الشيطانية بالنفس ؛ لأن تلك الخواطر إذا أمهلت لم تلبث أن تصير عزماً ثم عملاً (1) .

لذلك تنطق هذه الحقيقة التي تؤكد أن " مَسَّ الشيطان عمى ، وأن تذكر الله إبصار ، إن مَسَّ الشيطان ظلمة ، وإن الاتجاه إلى الله نور ، إن مَسَّ الشيطان تجلوه التقوى ، فما للشيطان على المتقين من سلطان (2) .

فمن أبصر طريق الحق وأتبعه كان الهدى له ضياء ، ومن أظلم عقله وقلبه فليس له يوم القيامة عند الله عزاء ﴿ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِمَ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (3) .

الصورة السادسة : سبيل العمل (ع مرل)

يحرص الشيطان على تنوع أشكاله واختلاف ألوانه ظناً منه أن هذا يساعده على تحقيق أماله وأحلامه ، ولكن ربنا تتحد صورته ويبقى رسمه ثابتاً عندما يدخل إلى روضة الأنبياء والصالحين .

وقد ظهر أثر ذلك في عنوان الرسالة الثانية والتي كان (عمل الشيطان) فيها سبيلاً إلى أنبياء الله ورسله ، وبالتالي لم تتغير صورته مع هؤلاء الذين يتأسون بحياة أنبيائهم ، ويقتدون بهديهم ، وهم الصالحون ، الذي أعلوا بناء الدين ورفعوا قواعده ، وكأنه لا يهدأ ولا يفتر عن المخلصين من عباد الله - ﷻ - .

فالشيطان في حركه دائمة وعمل متواصل ، تساعده إمكاناته وطاقاته ، حريص على تحقيق هدفه ، يقدر الخطوة قبل أن يخطوها ، يعلم مدخل كل إنسان ومخرجه ، ما يحب وما يكره ، رافعاً سلاحه ، لا يحط رحاله ، ولا يعتريه الوهن أو الضعف ، بل يظل شعاره دائماً رفع راية العصيان ، وأسرُّ القلوب والأبدان ، يحيا في عالم الآثام وكله رغبة ورجاء في هلاك

(1) التحرير والتنوير 232/9 ، 233 .

(2) في ظلال القرآن 1420/3 .

(3) الإسراء الآية 72 .

بني الإنسان ، فهل يتذكّر من صرف وجهه وقلبه عن هدي الرّحمن ، وارتمى في أحضان الشّيطان ؟ .

وقد حدّر القرآن الكريم من كل هذا درءاً للفتنة ، وإثباتاً للحجّة والبيّنة ، وذلك في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا أَحْمَرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَأَجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُصَدِّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ (1).

وهذه الآية " نزلت في سعد بن أبي وقاص - ﷺ - ، وفي رجل من الأنصار ، يقال : عتبان بن مالك الأنصاري ، وذلك أنّ الأنصاري صنع طعاماً ، وشوي رأس بعير ، ودعا سعد بن أبي وقاص إلى الطّعام ، وهذا قبل التّحريم ، فأكلوا وشربوا حتى انتشوا ، وقالوا الشّعْر ، فقام الأنصاري إلى سعد ، فأخذ إحدى لحبي البعير ، فضرب به وجهه فشجّه ، فانطلق سعد مستعدياً إلى رسول الله - ﷺ - فنزل تحريم الخمر (2) .

والشّيطان في هذا السّبيل حاول أن يتسلّل إلى قلوب الصّالحين المخلصين ، وذلك من خلال بعض الأشياء التي رغبوا فيها في جاهليتهم واشتدّ حرصهم عليها ، حيث كانت من جملة عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم ، وذلك حتى لا ينهضوا لمقاومته أو مصارعته فبدأ " بالخمير " وهي كل ما خامر أو ستر العقل ، ثم " الميسر " يعني به القمار كله ، والأنصاب : يعني الحجارة التي كانوا ينصبونها ويذبحون لها ، والأزلام : سهام كانت في الكعبة يقسمون بها في أمورهم وواحداهم زلّم (3) .

ولكن الله - ﷻ - نبّههم وحدّرهم من خطورة هذه الأشياء ومآلها في الدّنيا والآخرة ، فأرسل إليهم هذه الرّسالة النّصيّة التي ينصّ فيها على حرمة هذه الأشياء وعلى جرم فاعليها ، فوصفها جميعاً بأنّها رجس من عمل الشيطان " والرّجس في اللغة : اسم لكل ما استقْدِر من عمل ، فبالغ الله في ذمّ هذه الأشياء ، وسماها رجساً ، وأعلم أنّ الشّيطان يُسوّل ذلك لبني آدم

(1) المائدة الآيتان 90 ، 91 .

(2) تفسير مقاتل بن سليمان 319/1 .

(3) ينظر : معاني القرآن للفراء 319/1 ، ومعاني القرآن وإعرابه 291/1 ، 203/2 ، وتفسير مقاتل بن

سليمان 319/1 .

، يقال رَجِسَ الرجل يَرَجِسُ ، ورجَسَ يَرَجِسُ ، إذا عمل عملاً قبيحاً ، والرَّجْسُ - بفتح
الراء - : شدة الصَّوت ، فكان الرَّجْسُ العمل الذي يقبح ذكره ، ويرتفع في
القبح (1) .

فالشَّيْطَانُ يُجَمِّلُ الأشياءَ في الظَّاهر ، ويزَيِّنُها في العيون والقلوب حتى تبدو وكأنَّها ذهب
خالص لم تمسه الأيدي ، حتى إذا ما دنت منها النَّفْسُ وهَمَّت بتقبيلها واحتضانها أغلقت
عيون الصَّالحين جفونها ، وقلوبهم أبوابها ، فالشَّيْطَانُ " يُحَسِّنُ ذلك لكم ، إرادة منه أن يوقع
بينكم العداوة والبغضاء في شربكم الخمر ، ومياسرتكم بالقداح ليعادي بعضكم بعضاً ،
ويبعث بعضكم إلى بعض ، فيشتت أمركم بعد تأليف الله بينكم بالإيمان ، وجمعه بينكم
بإخوة الإسلام . ويصدكم عن ذكر الله ... ويصرفكم بغلبة هذه الخمر بسكرها إياكم عليكم
، وباشتغالكم بهذا الميسر ، عن ذكر الله الذي به صلاح دنياكم وآخرتكم وعن الصَّلَاة التي
فرضها عليكم ربكم (2) " .

فليعلم الصَّالحون أن الشَّيْطَانُ يعمل على تفعيل هذه الأشياء وتقويتها في قلوبهم ،
وزرعها في حدائق حياتهم ، فهي صورة واقعية من عمله كلما خبت زادها اشتعالاً ، فهذه
الأشياء " موجبة للعداوة والبغضاء بين النَّاسِ ، والشَّيْطَانُ حريص على بثها ، خصوصاً الخمر
والميسر ، ليوثق بين المؤمنين العداوة والبغضاء ، فإنَّ في الخمر من انغلاب العقل وذهاب
حجابه ، ما يدعو إلى البغضاء بينه وبين إخوانه المؤمنين ، خصوصاً إذا اقترن بذلك من
السَّبَاب ما هو من لوازم شارب الخمر ، فإنَّه ربَّما أوصل إلى القتل ، وما في الميسر من غلبة
أحدهما للآخر ، وأخذ ماله الكثير في غير مقابلة ، ما هو أكبر الأسباب للعداوة والبغضاء ،
ومنها أن هذه الأشياء تصدُّ القلب ، ويتبعه البدن عن ذكر الله وعن الصَّلَاة ، اللذين خلق لهما
العبد ، وبهما سعادته ، فالخمر والميسر ، يصدَّان عن ذلك أعظم صدِّ ، ويشغل قلبه ، ويذهل
لُبَّهُ في الاشتغال بهما ، حتى يمضي عليه مدَّة طويلة وهو لا يدري أين هو ، فأئى معصية أعظم
وأقبح من معصية تدنُّ صاحبها ، وتجعله من أهل الخبث ، وتوقعه في أعمال الشَّيْطَانِ

(1) معاني القرآن وإعرابه 203/2 ، 204 .

(2) جامع البيان 565/10 .

وشباكه ، فينقاد له كما تنقاد البهيمة الذليلة لراعيتها ، وتحول بين العبد وبين فلاحه ، وتوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين ، وتصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة ؟ فهل فوق هذه المفاسد شيء أكبر منها⁽¹⁾ ؟ " .

فهذا هو الشَّيْطَانُ ينتقل بالصَّالِحِينَ من سبيل إلى آخر ، يُزَيِّنُ لَهُمُ الحَرَامَ وَيُجَمِّلُهُ فِي أَعْيُنِهِمْ حتى ينتقل بهم من وصف الصالحين من عباد الله - ﷻ - إلى الخارجين عن حدوده ظناً منه أنه سيجد مسكناً في قلوبهم ، أو هوى في أنفسهم ، ولكن هيهات ذلك وحصنهم الحصين منهج ربهم وهدى نبيهم محمد - ﷺ - .

فإذا كان الشَّيْطَانُ رمز الفساد وعنوان الضلال في الأرض فالمؤمنون رمز الصَّلاح ومن سكنوا بإيمانهم القلب ، فلن تهتز صورتهم ولن يستطيع وجه التَّاريخ أن يغيِّر حقيقة طاعتهم وتوحيدهم وإخلاصهم لربهم ، فَمَنْ كَانَتْ قَبْلَتُهُمُ الْإِيمَانَ ، وَعَنْوَانُ حَيَاتِهِمْ طَاعَةُ الرَّحْمَنِ فَلَنْ تَجِدَ لِلشَّيْطَانِ مَعَهُمْ مَجَالَ ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾⁽²⁾ .

الصُّورَةُ السَّابِعَةُ : سَبِيلُ الْكَيْدِ (ك ي د)

يحيا الشَّيْطَانُ مع حياة أوليائه المؤمنين به ، ويخيب رجاؤه وتنقطع آماله ، ويموت حسرة وغيظاً مع أولياء الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَجِيُونَ حَيَاةً مَلَائِكِيَّةً ، لَا تَخْدَعُهُمُ الْأَوْهَامُ الْكَاذِبَةُ وَلَا الْأَحْلَامُ الْمَشْوَهَةُ ، إِنَّهَا يَحْمِلُونَ فِي قُلُوبِهِمْ إِيْمَانَ الْأَوْلِيَاءِ ، وَزَهْدَ الْأَصْفِيَاءِ ، يَنْبِرُ الْإِيْمَانَ دُرُوبَهُمْ ، فَتَنْشُرُ عَقُولَهُمْ وَصُدُورَهُمْ .

وفي هذه الحالة لا ييأس الشَّيْطَانُ من تحويل قبلة حياتهم ، بل يحاول أن يقوِّي شوكة أوليائه حتى يصاب أولياء الرَّحْمَنِ بِالْوَهْنِ وَالضَّعْفِ ، فَتَرْتَجِفُ أَفْتُدَّتُهُمْ قَبْلَ أَجْسَادِهِمْ فَيَسْتَحُوذُ عَلَيْهِمْ ، - ظَنًّا مِنْهُ كَمَا صَوَّرَ لَهُ خَيَالُهُ الْمَرِيضَ - ، وَذَلِكَ مِنْ خِيَالِ كَيْدِهِ الَّذِي يَكِيدُهُ بِهِ لَهُمْ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقْنَتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾⁽³⁾ .

(1) تيسير الكريم الرَّحْمَنِ ص 243 . وينظر : في ظلال القرآن 975/2 , 976 .

(2) الحجر الآية 42 .

(3) النساء الآية 76 .

والكيد: هو عبارة عن سلوك الطُّرق الخفية في ضرر العدو⁽¹⁾، أو ضرب من الاحتيال ، وقد يكون مذموماً وممدوحاً ، وإن كان استعماله في المذموم أكثر⁽²⁾ .

وأما الآية فهي تُجسّد صورة ميدان المعركة عندما يلتقي الحزبان ، أولياء الرحمن الذين يقاتلون من أجل تحقيق منهج الله في الأرض رجاء الفوز بثوابه والخوف من عقابه ، وأولياء الشيطان الذين يقاتلون من أجل كراهية المؤمنين وانتصاراً لمنهج الهوى والشهوات .

وهنا يأتي دور الشيطان في إبراز حيله ومكره وخداعه ، وذلك عن طريق (الكيد) ، والمراد " بكيد الشيطان : تدبيره ، وهو ما يظهر على أنصاره من الكيد للمسلمين والتدبير لتأليب الناس عليهم⁽³⁾ " .

فكيدته إذًا " ما كاد به المؤمنين من تحزيبه أوليائه من الكُفَّار بالله على رسوله ، وأوليائه أهل الإيمان به⁽⁴⁾ " .

فالشيطان في هذا الموقف يحاول بمكره واحتياله خداع المؤمنين بكثرة عدد المشركين وعتادهم ، حتى يلقي الوهن والضعف في قلوبهم .

ولذلك فربُّ العباد - ﷻ - في هذه الآية يقارن بين أوليائه من المؤمنين وأعدائه من الشياطين وحزبه، فيرد كيد الشيطان على نفسه ، فهو وأوليأؤه خواء لا أثر لهم في بثّ روح الخوف والخزلان في نفوس المؤمنين " فلا تهابوا أولياء الشيطان ، فإنّما هم حزبه وأنصاره ، وحزب الشيطان أهل وهن وضعف ، وإنّما وصفهم جلّ ثناؤه بالضعف ، لأنهم لا يقاتلون رجاء ثواب ، ولا يتركون القتال خوف عقاب ، وإنّما يقاتلون حمية أو حسداً للمؤمنين على ما أتاهم الله من فضله ، والمؤمنون يقاتل من قاتل منهم رجاء العظيم من ثواب الله ، ويترك القتال إن تركه على خوف من وعيد الله في تركه ، فهو يقاتل على بصيرة بما له عند الله إن قتل ، وبما له من الغنيمة والظفر إن سلم . والكافر يقاتل على حذر من القتل ، وإياس من معاد ، فهو ذو ضعف وخوف⁽⁵⁾ " .

(1) تيسير الكريم الرحمن ص 187 .

(2) المفردات ص 666 .

(3) التحرير والتنوير 124/5 .

(4) جامع البيان 547/8 .

(5) جامع البيان 546/8 ، 547 . وينظر: الجامع لأحكام القرآن 280/5 ، وتيسير الكريم الرحمن ص

187 ، ومعالم التنزيل 250/2 .

إِذَا ف " الشيطان وإن بلغ مكره مهها بلغ فإنه في غاية الضعف، الذي لا يقوم لأدنى شيء من الحق، ولا يكيد الله لعباده المؤمنين (1) ".

فالمؤمن يظل دائماً في حمى ربه، مصوناً بصون الله له، واثقاً من تأييده ونصره، سعيداً بالدفاع عن دينه، وإن ذهب إلى عالم الأموات في سبيله، عالمًا بضعف الشيطان ومكره وخداعه فيظل في مأمن منه، محفوظاً بحفظ الله له، ﴿ أَمَّن يَمْشِي مَكْبَتًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (2).

ف " الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله؛ لتحقيق منهجه، وإقرار شريعته، وإقامة العدل بين الناس " باسم الله، لا تحت أي عنوان آخر، اعترافاً بأن الله وحده هو الإله ومن ثم فهو الحاكم، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، لتحقيق مناهج شتى - غير منهج الله - وإقرار شرائع شتى - غير شريعة الله - وإقامة قيم شتى - غير التي أذن بها الله - ونصب موازين شتى غير ميزان الله! ويقف الذين آمنوا مستندين إلى ولاية الله وحمايته ورعايته، ويقف الذين كفروا مستندين إلى ولاية الشيطان بشتى آراياتهم، وشتى مناهجهم، وشتى شرائعهم، وشتى طرائقهم، وشتى قيمهم، وشتى موازينهم، فكلهم أولاء الشيطان... الشيطان وليهم، فهم إذن ضعاف ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (3).

فالشيطان إذا وإن ظهرت علامات مكره وخداعه في حياة المؤمنين به، المصدقين بأوهامه وأكاذيبه، الذين صفقوا له وعانقوه عناق المحبِّ حبيبه، فقاتلوا وضحوا من أجله، وذهبوا إلى عالم الأموات من أجل نصرته مذهبه، فالمؤمنون هم من قاتلوا لتكون ﴿ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلْسَفًا ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ (4)، فلم يخذعوا بها

(1) تيسير الكريم الرحمن ص 187. وقيل إن مكره وكيد في الآية أراد به يوم بدر حين قال للمشركين ﴿ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۗ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئْتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ ﴾ الأنفال الآية 48. الجامع لأحكام القرآن 280/5. وذلك " لما رأى الملائكة خاف أن يأخذوه فهرب وخزلهم ". معالم التنزيل 250/2.

(2) الملك الآية 22.

(3) في ظلال القرآن 709/2.

(4) التوبة من الآية 40.

كاد به لهم ، ولم يضعفوا أمام عدوهم ، فكیده أضعف من أن يؤثر فيهم ، أو يهز شعرة واحده من رؤوسهم ، فلم يخافوا أو يجبنوا أمام الموت ، ولم تكن الدنيا عقبة في تحقيق أهدافهم ؛ وذلك لأن حقيقة إيمانهم تشهد بأنهم يؤمنون بكلام ربهم الذي يقول ﴿ وَلَا حَسَبَ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (1) .

الصورة الثامنة : سبيل النجوى (ن ج و)

يبتكر الشيطان في هذا السبيل بعض أساليب مكره وخداعه حتى يفتن بها قلوب المؤمنين المخلصين من عباد الله - ﷻ - ، ظناً منه أنه بذلك يوغر قلوبهم ويحوّلها إلى كتلة من الغيظ تشتعل ناراً ، دائماً ملتعبة لا تهدأ أبداً ، فينتقل بهم من عالم الإيمان والسعادة والاطمئنان بوعده الله ونصره لهم إلى عالم ليس للصراع فيه حدود ، ولا لليل فيه انجلاء ، وإنما الكلمة فيه لصورة الأجساد التي لا تحمل القلوب فيها إلا إحساس بالذلة والهوان والحزن والآلام ، نتاجاً لصورة الخداع ، وإظهاراً لقوة وهمية لا حقيقة لها إلا في الخيال والأوهام .

فهذا هو سبيل (نجوى) الشيطان الذي يكيد به للمؤمنين المخلصين ، والذي عرضت له الآية الكريمة في قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (2) . فالنجوى هي من نجاه نجواً و نجوى : ساره ، والنجوى والنجي : السر (3) ، والنجو : السر بين اثنين ، يقال : نجوته نجواً : إذا ساررته ، وكذلك ناجيته (4) .

والنجوى في الآية الكريمة مدخل من مداخل الشيطان ، وهي أن تجتمع طائفة بعيداً عن الجماعة المسلمة وعن القيادة المسلمة لتبيت أمراً (5) ، حيث " كان المنافقون يتناجون بينهم ، وكان ذلك يغيظ المؤمنين ، ويكبر عليهم (6) " .

(1) آل عمران الآية 169 .

(2) المجادلة الآية 10 .

(3) لسان العرب 6/4361 .

(4) الصحاح 6/2503 .

(5) في ظلال القرآن 2/758 .

(6) جامع البيان 13/241 .

وقد " تناجى أعداء المؤمنين بالمؤمنين ، بالمكر والخديعة ، وطلب السوء من الشيطان ، الذي كيده ضعيف، ومكره غير مفيد(ليحزن الذين آمنوا) هذا غاية هذا المكر ومقصوده(1) ".
لذلك كانت هذه الآية " تسلية للمؤمنين وتأنيس لنفوسهم يزال به ما يلحقهم من الحزن لمشاهدة نجوى المنافقين لاختلاف مذاهب نفوسهم إذا رأوا المتناجين في عديد الظنون والتخوفات ... والمعنى أن النَّجْوَى يُوهم الذين آمنوا ما ليس واقعاً فأعلمهم الله أن لا يجزنوا بالنَّجْوَى ؛ لأنَّ الأمور تجري على ما قدره الله بنفس الأمر حتى تأتيهم الأخبار الصادقة(2) " .

فمهما تلوّنت صور الشيطان وتعدّدت أشكاله ف " وعد الله قاطع في أن الشيطان لن يبلغ بهذه الوسيلة ما يريد في الجماعة الآمنة ؛ لأنَّ الله حارسها وكالتها ، وهو شاهد حاضر في كل مناجاة ، وعالم بما يدور فيها من كيد ودسّ وتأمّر. ولن يضرَّ الشيطان المؤمنين إلا بإذن الله، وهو استثناء تحفظي لتقرير طلاقه المشيئة في كل موطن من مواطن الوعد والجزم، لتبقى المشيئة حرّة وراء الوعد والجزم(3) " .

فليعلم الشيطان أن قلوب هؤلاء المؤمنين الصّالحين معلّقة برّب الأرض والسماء ، فهم في حصن حصين من حيله وخداعه، " فإن الله تعالى وعد المؤمنين بالكفاية والنّصر على الأعداء ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَحِقُّ أَلْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾(4) ، فأعداء الله ورسوله والمؤمنين ، مهما تناجوا ومكروا ، فإن ضرر ذلك عائد إلى أنفسهم ، ولا يضر المؤمنين إلا شيء قدره الله وقضاه ، ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي : ليعتمدوا عليه ويثقوا بوعده ، فإنّ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ ، وَتَوَلَّى أَمْرَ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ(5) " .

وقد تتّجه الآية إلى التحذير والتأديب من تحويل هذه الصّفة الذميمة التي استعبد بها الشيطان قلوب الكافرين والمنافقين إلى قلوب عباده الصّالحين ، حيث " قال الله مؤدّباً عباده

(1) تيسير الكريم الرّحمن ص 846 .

(2) التحرير والتنوير 34/28 ، 36 .

(3) في ظلال القرآن 6/3511 .

(4) فاطر من الآية 43 .

(5) تيسير الكريم الرّحمن ص 846 .

المؤمنين ألا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾⁽¹⁾ أي : كما يتناجى به الجهلة من كفره أهل الكتاب ومن مآلهم على ضلالهم من المنافقين⁽²⁾

ولكن كان لابن زيد رأي آخر ، حيث قال : " كان الرَّجُلُ يأتي رسول الله - ﷺ - يسأل الحاجة ليرى الناس أنه قد ناجى رسول الله - ﷺ - قال : وكان النبي - ﷺ - لا يمنع ذلك من أحد ، قال : والأرض يومئذ حرب على أهل هذه البلد ، وكان إبليس يأتي القوم فيقول لهم : إننا يتناجون في أمور قد حضرت وجموع قد جمعت لكم وأشياء ، فقال الله : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾⁽³⁾ ."

فالنجوى إذا ناتجة من مكر الشيطان وخداعه ، أو قل تسويل الشيطان وتزيينه⁽⁴⁾ .

فليستدع الشيطان حزبه وجنوده ، وليصوّر لهؤلاء المؤمنين المخلصين ما شاء من حيله ومكره وخداعه ، فكل ذلك عائد على نفسه وأوليائه ، وتدبيره ينقلب حتماً إلى تدميره ، فقد أصيب بالعقم ، ولن يلد العقيم إلا بأمر ربّه ، فعالم الصّالحين ضربات القلب تنبض فيه بالإيمان واليقين ، وحياة الرّوح تحيا فيه في مقام أمين ، فهم المحسنون الذين أتبعوا السّابقين الأولين فرضي الله عنهم وأرضاهم كما قال ربّنا - ﷻ - : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾⁽⁵⁾ .

(1) المجادلة الآية 9 .

(2) تفسير القرآن العظيم 44/8 .

(3) جامع البيان 242/13 .

(4) تفسير القرآن العظيم 44/8 . وينظر : الجامع لأحكام القرآن 295/17 ، ومعالم التنزيل 56/8 .

(5) التوبة من الآية 100 .

